شخصية شهر يناير — ١

بيراندللو ومسرحياته الوجيعة

لمي زيادة (لمي)

[تفضلت كاتبة الشرق الكبيرة الآنسة « مي » فوعدت ان تتحف المقتطف كل شهر بدراسة شخصية عالمية كبيرة وآثارها الفكرية او الفنية . وقد بدأت بالكاتب الايطالي الكبير لويجي بيراندللو على ذكر فوزه بجائزة نوبل الادبية لسنة ١٩٣٤]

بين ما وضعهُ بيراندللو للمسرح روايات ذات مغزًى خاص . ومن اخص تلك الروايات رواية « ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف » (Sei Personaggi in Cerca d'Autore) . فقد مهّد لها — على غير عادته — بمقدمة مسهبة ذات سبع عشرة صفحة بسط فيها بعض آرائه في الانتاج الادبي الفني وكشف عن البواعث التي تستحثهُ على الكتابة . ونستخلص من تلك المقدمة فقرات جوهرية قد تمكننا من ادراك بعض غاية بيراندللو في ما يخطُّه قلمه . قال :

« ... ايُّ مؤلف يستطيع ان يقول كيف ولماذا تولدت شخصية من الشخصيات في مخيلته؟ إن سرَّ الانتاج الفني هو سر الولادة الطبيعية بعينه » . « وعليَّ ان اعترف بأني لا ارضى برسم صورة رجل او امرأة او غلام لمجرد الرسم ، كائنة ما كانت خصائص تلك الصورة وميزاتها . ولا استطيع ان اروي حادثة مفرحة او محزنة لمجرد الرغبة في الرواية ، او ان اصف مشهداً لمحض الميل الى وصفه

« ... من الكتّاب (وهم غير قليلين) من لهم هذه الرغبات يقنعون بها فلا يبحثون عن غيرها ، فهم بطبيعتهم ذوو نزعة تاريخية او تقريرية . وعند كتّاب آخرين — وراء تلك الرغبات — شعور اعمق باحتياج روحي يجعلهم لا يكتفون بالصور والحوادث والمشاهد ، فلا يقفون عند معنى محدود خاص من معاني الحياة . وهم ذوو نزعة اقرب الى ان تكون فلسفية . وأنا لتعاستي من هؤلاء . . . من هؤلاء الذين ، في الصورة المحسوسة التي يجب ان تبقى حية تتمتع بتمام حريتها الخاصة ، انما يبحثون في صميمها عن معنى آخر ينيلها قيمة ومغزى

« . . . على غير ارادة مني وعلى غير معرفة ، في ازدحام نفسي القلقة الجائشة ، كلٌّ منهم (اي اشخاص الرواية) يردُّ عن نفسه التهم التي يرميه بها الآخر ، بالتعبير عن نكاله وانفعالاته وشهواته العنيفة . امورٌ خبرتها كلها اعواماً طويلة خلال همومي الروحية : من تبادل التفاهم الخادع لارتكازه على فراغ الكلام السلبي ، الى تعدد الوجدانات في الشخصية الواحدة وفاقاً لممكنات الوجود الكامنة في كلٍّ من البشر ، الى العراك المفجع المحتوم بين مادة الحياة التي تتحرك وتتغير في اطراد وبين الصورة التي تتجمد بها مادة الحياة فتجعلها غير قابلة للحركة والتغيُّر ...

« ... كل شيء ، كل مخلوق فني ، ليكون موجوداً يجب ان يكون دراماتيكياً ، ذا درامية يكون هو الشخصية المكوّنة بها والشخصية المكوّنة لها في نفس الوقت . الدراما اي المأساة هي علة وجود الشخصية الفنية وهي الوظيفة الحيوية المحتومة لوجود الشخصية ... المأساة اي العراك المحتوم بين حركة الحياة في باطن الصورة وبين الصورة نفسها هو الشرط الذي لا غنى عنه ليس في النظام الروحي فقط ، بل في النظام الطبيعي ايضاً . ان الحياة التي — لتضمن لنفسها الوجود — ثبتت في الصورة الجسدية ، انه هي التي تقتلك بصورتها شيئاً فشيئاً » . . . « والمأساة المكررة بتعدد الشخصيات ، ذلك العراك الملازم الذي لا تفلت منهُ ، انما يجد في الكوميديا (المهزلة) بيانه الاكمل ...

« . . . فان قال قائل ان مثل هذه الرواية لا تظفر بكل قيمتها الممكنة لأن بيانها غير واضح بل هو سديمي مبهم (caotico) يفتقر الى العنصر الباطني ، فذلك القول يحملني على الابتسام . من هذا الابهام السديمي بطبيعته عليّ انا ان أخرج وأمثّل (rappresentare) . واخراج الابهام السديمي وتمثيله لا يعني مطلقاً التأليف على طريقة مبهمة سديمية اي على الطريقة العاطفية (Sentimentale) . وتأليفي ليس مبهماً ، بل هو جلي بسيط متسق يعلن لجماهير العالم ما فيه من التشابك والارتباك وتعدد الطبائع كما يوضح الميادين والاوضاع التي تختلط فيها الخيال والحقيقة والفجيعة والمهزلة . ولمن كان اجلى بصيرة تكشف القيم الغير المألوفة المستودعة فيه

« ... وبينما تلك الشخصيات تحيا في ذاتها حياة المادة الحيوية العاملة فيها وحياة الصورة التي تجمدت عليها وحياة العراك المستمر بين الروح والصورة ، الشاعر الذي يشهد كل ذلك عن بعد وعلى غير معرفة من الشخصيات إبان نكالها وعنائها — الشاعر الذي انتظر ورأى يكون قد خلق من كل ذلك روايته ... » اه

***

تتحتم مراجعة هذه الفقرات اكثر من مرة واحدة لاستجلاء ما اراد كاتبها بها . فهو ذو نزعة فلسفية كما يقرر ، وهو ذو نزعة علمية كذلك وإن تفتت الاصطلاحات العلمية من كتبه وكانت لغته – على ابهامها الفلسفي أحياناً – لغة ادبية تجردت من الغلو والتفخيم والركة . وتجردت في مجموعها من الطلاوة العاطفية ايضاً وان لم تخل من العواطف رغم ما يعصف بها من انواء الشهوات والانفعالات وتضعضع الشخصيات بين المأساة والمهزلة والتباس الميول بين تعدد الوجدانات . قال قوم ان بيراندللو كاتب ظريف وصاحب نكتة . وما أبعد هذا الرجل الوجيع عن الظرف والنكتة ! انه لا يرى الا المأساة ولا يستهويه غيرها . على انهُ مقتنع بأن فواجع المأساة لا يصدق تبيانها الا بما يحسبه الجمهور هزلاً . وذلك منتهى الكآبة . . .

ويلوح لي ان بيراندللو صنع في الشخصية الانسانية بمسرحياته ما صنعهُ العلم بالمادة . فقد كان

العلم قبل زمننا هذا يجزّيء المادة حتى يصل منها الى الذرة فيقف عندها كأنما هو قد انتهى إلى الجزء الادق . ولكنه اليوم قد جزّأ الذرة الى ما لا نهاية له ، إلى ما وراء الإليكترون ، فصارت أصائل ذرية قابلة للتجزئة بلا حد ولا نهاية . وكل جزء من هاتيك الاجزاء التي لا يدرك العقل دقتها ، إنما هو عالم قائم بذاته ، ونواة السلب ونواة الايجاب نامتان فيه مكتملتان

ذلك شأن بيراندللو في الشخصية الانسانية الواحدة التي ألفنا اعتبارها جسداً وروحاً وكفى ، وللروح والجسد منها نزعات وعادات يتيسر تثقيفها وتدريبها وتكييفها في صيغ تثبت طول الحياة . فهو قد جزأ الشخصية الواحدة شخصيات متعددة كل منها مطردة الحركة والتغيير وكل منها مكتملة في ذاتها اكتمالها الشاذ الخاص . ولست أصدق ان أية مسرحية بيرندللية تلقى بالتمثيل من النجاح ما يتوازى وقيمتها الادبية الصحيحة . لأن الجماهير تحتاج إلى طلاوة اخرى في الروايات المسرحية والسينمية وإلى ذلك المزيج من الرونق والروعة الذي يسيطر على الوعي الفني ويستأثر به . أما حيال روايات بيراندللو فعليك ان تنتزع ، على نوع ما ، من خفي وجداناتك وجداناً دفيناً تستطيع به ان تشرف على ذلك العالم الغير المألوف وتدنو قليلاً قليلاً من ذلك الأبداع الخاص

هو ابداع خاص ، بلا ريب . وان كان بيراندللو في تكوين فنه قد تأثر حتماً بفن إيبسن النروجي وبخاصة برواية «الاشباح» حيث تنقلب شخصية البطل ميداناً لعوامل الوراثة وتياراتها الجارفة . كما تأثر بنظرية العقل الواعي والعقل الغير الواعي عند فرويد وزملائه من علماء هذا العصر ، دون ان يقتصر بيراندللو على لغز الغريزة الجنسية التي يستوحيها دون سواها كثيرون من أدباء اليوم عند مختلف الشعوب

وقد باشر حياته الادبية بالقصص الصغيرة ، فله منها ما يزيد عن الاربعمائة . وصف فيها الكثير من عادات وطنه ، صقلية ، وأساليبه وتقاليده واضطراباته الاجتماعية خلال حرب الاستقلال الايطالي (Risorgimento) . وقد اشترك والده في تلك الحرب بالتطوع في جيش الثوار الجاري الدين وكانت والدته إبنة أحد زعماء تلك الثورة في صقلية وشقيقة احد المجاهدين . وتعمد القيام بمجهود خاص في القصص وفي نوع اخراجها فوضع سلسلة منها قصة لكل يوم من أيام السنة ، ووضعها في عدة مجموعات متتابعة باسم واحد وهو « قصص لعام واحد » (Novelle per un Anno)

كذلك نشر نحو عشر روايات من أهمها رواية « الشيوخ والشبان » (I Vecchi ei Giovani) و « المرحوم ماتيا بسكال » (Il fu Mattia Pascal) وهذه لفتت النقاد والجمهور اليه سنة ١٩٠٤ . وجرّب نظم الشعر في شبابه . وفصوله النقدية وغيرها في مختلف الموضوعات ، كثيرة . ولكن كل هذا يتقهقر ازاء فنه الاكبر الذي جعل لطريقته اسماً شائعاً في الآداب العالمية وهي « البيراندللسمو » (Pirandellismo) . وفنه الاكبر والأوفق هو في تلك المسرحيات التي يجب ان تقرأ

كلاً مشاهدة مرّات لتفهم او لتفهم انك لا تفهم ولماذا لا تفهم . او على الأقل لتفهم ان بعض صنوف الفن يتملّص من قبضة يدك ومن موحيات النقدية ومن قوتك الروحية جيداً . وكل ما تستطيعه حياله هو التبصّر في ممرض هاتيك الشخصيات البسيطة المألوفة من الناحية الواحدة ، والشاذة التي تتحدّى العقل من الناحية الاخرى . وقد اطلق على مسرحياته الاربعين اسماً عامّاً تجده على كل منها فوق اسمها الخاص . وذلك الاسم العام هو «مساخر عارية» (Maschere Nude) . وكلمة « مساخر » جمع « مسخرة » ليست قاموسية فيما أعلم ، ولكنها تؤدي المعنى الايطالي على وجه التمام . وهي مستعملة باللغة العامية في سوريا ولبنان وفلسطين ، تُطلق على الوجوه الصناعية التي تُرى في مهرجانات المرفع (Carnaval) المتقدّم الصوم الكبير عند المسيحيين . ولا بدّ ان تكون مقتبسة عن الكلمة الايطالية التي أخذ عنها الفرنسيون كلمتهم Masque

واهاً لتلك المساخر التي يعرّيها بيراندللو ! مساخر الحياة الاجتماعية ، مساخر الأوضاع المحترمة ، مساخر المصادفات والظروف ، مساخر الاقدار التي لا تحصى ! مساخر الاحتياجات التي لم نختلقها ، مساخر الغرائز التي لم نسع اليها ، مساخر القيود والحدود والتبعات التي ما إن ولدنا حتى وجدناها مفروضة علينا ! عبثاً تبحث عند بيراندللو عمّا يُشبع فيك عاطفة او يروي ظمأ أو يُطفئ فكر بشكل او بلطف من وقدة او يخفف من لوعة : هناك عالم الاداويه ، ما إن بلغت عتبته حتى صرت فريسة الحيرة والتضعضع . . .

***

كيف يصبح الفنان فنّاناً ؟ وما هي العلاقة بين الفنان والعالم المحيط به ؟

المقررون من الكتّاب يعنون بسرد الحوادث والطوارىء في حياة الاديب ويحرصون على تدوين تاريخ مولده واسم بلده واسم أبيه وأمه وجدوده وعدد اخوته واخواته ، دون إهمال ذكر اسفاره والبلاد التي هبطها والبقاع التي شاهدها سواء اكتب عنها ام لم يكتب

والواقع ان كل ذلك لا أهمية له الاّ إذا كان ذا أثر في حياة الشخص الداخلية الخاصة وذا دويّ في محيط نفسه . والعلاقة كلّها بين الشخص الواحد والعالم المحسوس تتلخّص في الحساسية ، في مقدرة الشعور والتأثر تأثراً إيجابيّاً عما يقع للفنان او يقع حواليه . وانما يصبح فناناً عند ما تصل الحساسية بين قرارة نفسه وبين العالم المحسوس حواليه فيترجم الوقائع والحوادث والاختبارات النفسية بطريقته الخاصة إلى عالم الفن بأداة الفنّ ، قلماً كانت أو ريشةً أو وتراً أو إزميلاً

يستهل بيراندللو المقدمة التي ذكرناها في مطلع هذا المقال ، بالبيان التالي : « في خدمة فني مُنذ أعوام طويلة (وكأني بها منذ البارحة فقط) خادمة جدّ رشيقة وهي غير جديدة في صناعتها . اسمها المخيّلة . هي عابثة بعض الشيء ، وماكرة . ولئن راقها ان تتشح بالسواد أحياناً فليس من ينكر انها إنما تفعل جرياً وراء الغرابة والشذوذ في الغالب . ولا يُظنّن انها تصنع ما تصنع جادّة وعلى

وتيرة واحدة . . . وتتفكّه بأن تجيء اليّ في بيتي احياناً رجالاً ونساء وشباناً هم أكثر الناس استياء في العالم . اشتبكوا في أحوال غريبة من التعقد والارتباك ولا يجدون منفذاً للخروج منها : قوم منكدون في امانيهم ، منتكسون في رغباتهم ، مغلوبون على آمالهم ، والتفاهم معهم من أعسر الأمور حقاً في أكثر الأحيان . هي تحملهم اليّ لأستخرج منهم الاقاصيص والروايات والكوميديات » . اهـ

هذا ما يقوله . ولكني اعتقد ان اول روابطه بالعالم هي حساسية عميقة مضطربة مرهفة تحمله على التوغل في كل نفس وفي كل كائن وفي كل شيء . تصحبها وتسايرها تلك التي يسميها خادمة ، وما هي في الواقع إلا سيدة مسيطرة مستبدة منوّعة القدرة تتناول تأثيرات الحساسية وخلاصة الملاحظات الدقيقة وسائر تلك المؤهلات الخاصة فتكيفها لاعبة كما تشاء وتخلق منها عالماً جديداً

وكأنّ الظروف التي هيأتها الحياة لبيراندللو إنما تناسقت كلها وحفزت لتهاجم تلك الحساسية الشاذة بالدغدغة والتعذيب بلا رحمة ولا مهادنة . فقد ولد قبل موعد مجيئه إلى العالم بأسابيع . ومع ان الحب كان الباعث على زواج أبويه ، فقد عرف في حياته المنزلية شقاء الوحدة بين والدين متنافرين ، والفضائح الخلقية والاجتماعية والخسائر المالية والانهيار من الأوج إلى الحضيض . وشهد وهو بعد في سن الرابعة عشر ، لجيمة طائلية نجمت عن عنف والده واستهتاره كان أثرها في نفسه أثر الحديد المحمي وتجد لها أصداء عدة في مسرحياته . وبعد ان أتم دراسته في روما وبون بألمانيا ، اختار له والده زوجة لالغنائه بها ، ولكن لانه كان في حاجة إلى بائنة الفتاة يدعم بها حالته المالية المتداعية . ولم يطل ان غارت تلك البائنة كلها في هاوية الخراب فاضطر بيرندللو إلى البحث عن عمل يكفل به حياة زوجته واطفاله الثلاثة . فعين مدرساً للآداب الايطالية في معهد الدراسات العليا بروما ، براتب ٩١ ليرا ايطالية شهرياً !

ولكان يهون كلّ ذلك رغم الفاقة والضنك بين العمل العنيف المضني وإرهاق الفكر والجسد ، لولا تلك المصيبة التي جعلت حياته مأساة لا تنتهي . . . زوجته لم تكن مريضة فحسب بل أخذت تبدو عليها أعراض الجنون . فكانت في بادىء الأمر غيرة صاخبة ليل نهار . تغار من تلميذاته ، تغار من النساء المارات به في الطريق ، تغار من جميع النساء الموجودات في العالم . فلزم البيت ليطمئنها ولم يكن يخرج إلا ومعه أحد ولديه . وجرّد نفسه من النقود فكان يطلب منها يوماً فيوماً ثمن السجاير واجرة الترام . فلم يجد ذلك نفعاً . ثم صارت تعتقد ان أبناءها يمقتونها ويضطهدونها ويتآمرون على دس السم لها فأمست لا تتناول طعاماً أو شراباً إلا بعد تناول أحد افراد البيت منه قبلاً . ومضت ترمي ابنتها بأشنع التهم فلم تحتمل الفتاة وحاولت الانتحار فأدركت بالعلاج . على انها أبت البقاء قرب والديها وفرّت إلى الدير تطلب الخلاص . وعندما نشبت الحرب ذهب ولدا بيراندللو إلى القتال فوقع أحدهما أسيراً بيد الاعداء ومرض الآخر مرضاً خطراً . فاذا بوالدة بيراندللو تموت

في صقلية واذا بوالده ، وقد أصبح أصم وشبه ضرير ، يقبل عليه في روما وينزل في بيته فيملأه بأمراضه وشكاياته وفظاظته . وبيراندللو المسكين بين زوجته ووالده ، وسط العمل المرهق والغم الملازم ، يتنازعه القلق على ولديه والحزن على ابنته ...

عندئذٍ ، وللاعصاب حدٌّ تأبى بعده الاحتمال — عندئذٍ شعر الأديب بالاحتياج إلى حياة أخرى يفرّج فيها من كربته وينجيا عندها على هواه . فعمد إلى مسرحياته يخلق بها عالماً جديداً يسبغ عليه أطياف مخيلته وصخب انفعالاته ، مثيراً فيه النكبات والمحن بالمرض لمناقضات الدنيا وفواجعها واحزانها

وهل استخلص من كل ذلك درساً ما يعينهُ على احتمال الحياة ؟ يخيل إليَّ اني أجد الجواب على هذا كلهِ أرسلها في احدى رواياته[1] على لسان شخص يخاطب مدرساً فيقول : « أليس اننا جميعاً في بعض الاحيان نشعر وكأن نوراً يتفتح ويتألق في داخل نفوسنا ، نوراً ينسكب علينا من سماوات أخرى لا نعرفها فيمكننا من النفوذ إلى أقصى خفايانا باعثاً فينا ابتهاجاً لا نهاية له نشعرُ معهُ لحظةً بأنا نحيا خالدين ؟ تلك اللحظة التي هي أبدية في ذاتها تكفينا . هذا ، يا استاذ ، ما عليك ان تُدرّب تلاميذك عليه : إدراك تلك الابدية في لحظة — »

***

انتهت الحرب فتوفي والد بيراندللو ، وعاد ولداه سالمين ، واضطرته حالة زوجته الى ارسالها الى مستشفى الامراض العقلية وزوّجت ابنته . وطار اسمه على أجنحة الذيوع واخذت مسارح العالم تعجُّ بنجاح مسرحياته . وتعين عضواً بالاكاديمية الايطالية فصار — بيراندللو ! — يرتدي الكسوة المزركشة بالقصب ويحمل السيف الاكاديمي ويلقّب بصاحب السعادة (Sua Eccellenza) !

بأرباحهِ الاولى شاد لنفسهِ منزلاً في روما ، ولكنهُ مضى يطلب منزلاً متنقلاً في بيتي العالم الرحيب . وهو الذي لم يكن يتغيب عن روما إلاّ ليتفقد وطنه بصقلية ، أصبح دائم الرحيل من لندن ، الى باريس ، الى برلين ، الى نيويورك ، الى البرازيل ، الى مصر ، ليستقر أياماً في بلاد الشمال حيث يتلقى الآن جائزة نوبل ! ورفيقته في جميع اسفاره ورحلاته هي تلك « الخادم » التي اسمها الحيلة . ورفيقة اخرى لا غنى عنها : آلة الكتابة التي يؤلف عليها مسرحياته الجديدة في غرفة الفندق التي سيغادرها عما قريب . وكأني به عند ما يبعث في عالمه بعثاً جديداً ، إنما يفعل وهو يبارك الله مع بودلير الشاعر الفرنسي ، لانهُ تعالى خالق الالم[2] ...

(١) رواية « ليس الامر بذي بال » (Ma non è una cosa seria)

(٢) Soyez béni, mon Dieu, qui donnez la souffrance
Comme un divin remède à nos impuretés,
Et comme la meilleure et la plus pure essence
Qui prépare les forts aux saintes voluptés !
... ...
[Baudelaire]